ابتلاء راهب !!

ظلت الدنيا تقبل على جريج حينا ، وتدبر عنه حينا آخر ، حتى اعتقد بنو إسرائيل أنه لن تطول به الحال حتى يفلس ، ويترك تجارته ، ويصفى سلعه ، ويتجه وجهة أخرى غير هذه الحرفة التى فشل فيها فشلا ذريعا ، ولم يعد يكسب منها قوته ، أو يربح ما يكفيه ليعيش عيش الكفاف ، فهو لا يطمع فى أكثر من هذا بحال ..

حقا ، لقد كانت الدنيا تقبل إليه ، فإذا بالربح ينهال عليه من كل حدب وصوب ، وإذا بتجارته تنمو وتنمو ، حتى يعتقد أنه بالغ إلى أرقى درجة يبلغها تاجر موفق ، حتى إذا اطمأن إلى هـــذه الحال ، وألفها إلى حدٍّ ما ، واعتقد أنها ستسير دائما على هذا المنوال ، رخاء ورغدا ، إذا بها تضيق مرة أخرى ، ولا يكاد يربح شيئا ؛ بل ينفق من رأس ماله ، حتى يخيل إليه أنه عما قريب سينتهى إلى غير رجعة ولا عودة ..

وهكذا ظلت الدنيا تلعب بعقله وفكره ، حينا تعطيه ، وحينا تأخذ منه ما أعطت ، حتى سئم جريج هذه الحياة ، وملّ ذلك العيش الأليم ، وابتدأ يفكر تفكيرا جديا فى حرفة غير التجارة ، تعود عليه بالربح القليل ، حيث يمكنه أن يعيش دون أن يسأل أحدا من الناس ، أو يستجدى لأكف ، فهذا موقف لا يرضاه ..

ثم هو لا يدرى سببا لعدم توفيقه فى تجارته .. إنه رجل أمين ، صادق

وفىّ ، يعرف عنه ذلك بنو إسرائيل جميعا ، و يشهدون له بالاستقامة والجد والنشاط ، وعدم التوانى فى عمل ما ، كائنا ما كان هذا العمل . . ثم هو لا يغش أحدا ، وإنما يمتاز بالصراحة فى كل شىء ، ومهما كان الربح طائلا بسبب كتمان عيب فى السلعة التى يبيعها فلا يرضى لنفسه هـذا الربح ، وسرعان ما يعترف بما فى السلعة من عيب ، قد يذهب بقيمتها فى كثير من الأحايين .. وماذا يضيره وقد أرضى نفسه وضميره ، وأراح خاطره ؟! كل شىء يهون بجانب هذا ، وإن الدنيا فى نظره لا تساوى ما ينفق فى سبيلها من دين وضمير ، ومغالطات أثيمة ، تؤدى بالمرء إلى أسوأ العواقب ، وأوخم النتائج بحيث لا يطيب للانسان بعد ذلك عيش ، ولا يهنأ بما نال من الدنيا على حساب دينه وضميره .. !!

* * *

وهكذا ترك جريج هـــذه التجارة التى لا خير فيها ، والتى يرى الغشاشين والمدلسين يربحون فيها ، ويجنون طائل الربح ، بينما هو بصدقه ونصحه ، لا يعرف كيف يعيش وسط هؤلاء ، الذين نالوا من الدنيا أكبر نصيب ، وأوفى حظ مستطاع . .

وأخذ يفكر فى شىء آخر . . فى تجارة أخرى ، فاهتدى إلى لون عجيب من ألوان التجارة لا خسارة فيه ، و إنما كله الربح المحقق ، والكسب الوفير ، والخير الجزيل .. إنها تجارة الآخرة ..!

يالله ! وكيف غاب عن فكره هذا اللون السامى من التجارة الرابحة من زمن بعيد ؟ !

إنها لسنوات طويلة ضاعت من عمره سدى ، وما كان يجدر به أن تضيع منه ، وما كان يليق به أن يضيعها على هذا الوضع غير الطبيعى ..

وهكذا أقبل جريج على التجارة الأخروية إقبالا عظيما ؛ إقبال الشخص الذى يعتقد أنه غبن مدة طويلة ، ومايصح أن يغبن ، ونسى شيئا ما كان يصح أن ينسى ، وأهمل فى خير ما يعمل .. فى أمر الآخرة .. لله هذه السنوات التى أضاعها سدى ، ولله هذا العمر الذى مضى هباء بين جمع الدرهم والدينار ، مما لم يبق منه فى يده شىء ، على طول ما اكتسب ، ووفرة ماربح .. وإن الدنيا لتغدر دائما بطالبها ، وتريه ألوانا من البلاء ، قلّ أن يصبر عليها كثير من الناس ، أو يجدوا من أنفسهم الجلد على احتمالها ، والصمود لأهوائها ..

* * *

الآخرة .. ما أجل الآخرة .!!

العبادة لله الواحد القهار ..

هنا سأفرغ من الدنيا ، وأفرغ من أهوالها الجسام ، وأعبائها العظام .. وأقبل على الله ، بارئ النسم ، وخالق الكون ..

ونظر إلى الصومعة الجميلة التى كان يبنيها فترتفع عن الأرض رويداً رويداً ، حتى إذا بلغت الارتفاع الذى أراده ، أتمها على خير ما تكون صومعة عابد ، يجد الراحة فى الإقبال على الله ، والتفرغ لشئون أخراه ، بعد ما انتهى من أمور دنياه ..

ودخل فى صومعته ، ونظر هنا وهناك ، فإذا به يرى هوان الدنيا ، وحقارتها .. هوانها على الله ، وأنها لا تساوى عنده جناح بعوضة . وحقارة شأنها ؛ لأن الملتحف بها عار ، ولو كان يملكها بأسرها ، والراغب عنها ابتغاء مرضاة الله ناج ، وإن كان لا يملك فيها شروى نقير ..

هنا إذن موضع العظمة الروحية السامية ، فهنيئاً لك ياجريج ..

* * *

وأقبل جريج على الله منذ ذلك الحين ، ولزم صومعته ، ولم يعد له إلى الناس حاجة .. لقد فرغ من دنيا الناس ، والتجأ إلى الحمى المنيع ، والجانب الرفيع ، والجناب الأسمى ..

وتكشفت له آفاق بعيدة ، لم يكن له بها عهد من قبل ، ورأى عوالم سامية ، حزن فى قرارة نفسه أشد الحزن لأنه لم يطلع عليها من قبل ، ونقم على نفسه أشد النقمة لأنه لم يسع إلى هذا الفضل من أمد بعيد ، وبقى فى تلك الظلمات ، فرحا بما كان يناله من ربح ومال ..

يالله ! ما هذه الجدران ؟ إنها لا شىء .. لقد أصبح يرى ما وراءها ، وينظر ما خلفها .. لم تصبح حجابا يحول بينه وبين المرئيات .. لقد خلى بينه وبين الحجب ، فأى سعادة وراء هذه السعادة ، وأى عظمة يبلغها الإنسان بإقباله على الله تضارع هذه العظمة ؟ ! تبًّا للذين لا يعلمون كنه العبادة ، ولا يدركون سر الحياة الروحية ، التى تسمو بالنفوس إلى درجات الكمال ، والرقى الذى من أجله خلق الله بنى الإنسان ..

ليس الله فى حاجة إلى أموالك ، وما تتمتع به فى هـذه الحياة من وافر الربح ، وسامى المنصب والجاه ، فقد يكون ذلك كله بلاء يختبرك الله به . . وليس الله فى حاجة إلى عبادتك فليس يعود عليه منها شىء ، و إنما يريدها منك ، و يأمرك بها لأنها مظهر من مظاهر طاعتك له ، و إقبالك عليه ، وهذا حق من حقوقه ، لأنه خلقك وسوّاك ، وأوجدك من العدم ، ورزقك من حيث لاتدرى ولا تشعر ، وهو فى كل حين يجزل عليك العطاء ، و يضاعف لك الأجر والثواب ؛ كلما أقبلت عليه ، أو اتجهت إليه ، ولو لحظات قلائل ، من ليل أو نهار .. !!

وتذوّق جريج طعم العبادة ، ووجد أثرها فى نفسه . بيد أنه كلما مرت به الأيام ، ازداد خوفا من الله ؛ وخشية منه ، ووجد من نفسه دافعاً يدفعه إلى الازدياد من الطاعة ، والإكثار من العبادة ، والتبتل والخضوع للعلى الـكبير ، خالق الأرض والسموات .. !!

وما أجمل العبد حين تصل به الحال إلى هذه الدرجة ؛ و يبلغ هذه المنزلة .. إنه يصبح قريباً من الله ، يدعوه فيستجيب له ، و يضرع إليه فيرضى عنه ، و يشمله بكرمه الشامل ، وعطفه الغامر ، وخيره الوفير .. فإذا بكل شىء فى متناول يده ، لا يستعصى عليه شىء ، ولا يتكاءده أمر ولا تخفى عليه خافية ؛ لأنه سيرى بنور الله .. !!

* * *

وكانت أمه تأتى إليه ، وترفع بصرها إليه ، واضعة كفها فوق حاجبها رافعة رأسها ، فيكلمها و يجيبها عما تريد ، فترجع فرحة مسرورة بما وصل

إليه ابنها من درجة سامية ، ومنزلة عالية ، وأنه لابد وأن يكون نال من الله الرضا والقبول . . وما أسعد الأم حينما تدرك أن ابنها سعيد فى دينه ، فهى و إن كانت تحب له الدنيا ، إلا أن الدين عندها أولى بالنظر ، وأحق بالتقدير والاعتبار على الدوام . .

ثم جاءته مرة ، ورفعت رأسها إليه ، واضعة كفها فوق حاجبها ، وأخذت تدعوه وتناديه ، وكان فى هذا الوقت مشغولا بعبادة ربه ، غارقا فى تلك الفيوض الإلهية ، حيث تبلغ بالعبد روحانيته أن يغفل عما حوله ، ولا يكاد يذكر شيئا من أمور الدنيا . .

ولـكنه أحس بأمه تناديه ، وسمعها تدعوه ، فآثر البقاء مع ربه ، والتمتع بما يفيض عليه من خيرات ، والتلذذ بما يضفى عليه من رحمات ، ويسبغ عليه من تجليات ، معتقداً أن إجابة أمه تحول بينه و بين هذه العبادة وتبعده عن رحمة ربه ، وتغرقه فى جو الدنيا الفانية ، التى لايحب أن يخلد إليها ، أو يقبل عليها . . وألحت أمه فى النداء والدعاء ، ولـكنه ظل على موقفه كما هو ، مقبلا على ربه ، منصرفا عن نداء أمه . .

وانصرفت أمه حانقة عليه ؛ لأنها تراه فى صومعته عابداً مترهباً ، دون أن يعيرها أدنى اهتمام . . كان فى مكنته أن يجيبها ، ثم يعود ثانية إلى ربه ، ينعم بقربه ، ويسعد بمناجاته ، فبذلك يكون جامعا بين رضاء ربه ورضاء أمه . . أما الآن ، فلقد تغير قلبها قليلا ، وشعرت بالنقمة عليه ؛ لأنه لم يعرها أدنى اهتمام . .

وجاءت إليه مرة أخرى ، فصادفته فى عبادته ، كما صادفته أول مرة ،

وأخذت تناديه وتدعوه ، ولكنه ظل كما هو مقبلا على ربه ، معرضا عنها ، فآلمها ذلك أيضا ، وازدادت نقمتها عليه ..

وجاءت إليه مرة ثالثة ، فصادفته فى عبادته كما صادفته فى المرتين السابقتين ، وأخذت تناديه وتدعوه ، ولكن عبثا فعلت ؛ إذ ظل متجها إلى ربه ، منصرفا عنها ، لايعيرها أى اهتمام ..

لقد ملك عليه احترامه للعبادة كل عواطفه وأحاسيسه ، فلم يعد فى قلبه مكان لغير هذا الاحترام ، وذلك التقديس .. لقد ظل صوت أمه يدوى فى أذنيه عاصفا حينما كانت تدعوه وتناديه قائلة فى ضراعة وحنان :

— يا جريج ، أنا أمك ، كلمنى ..

ولكنه لم يكلمها لثالث مرة ؛ إذ كانت كل مرة تصادفه غارقا فى العبادة .. لقد حز هذا فى نفسه حزا ، وآلم فؤاده ألماً شديداً ، ولكنه لم يكن فى مكنته أن يفعل غير ما فعل ..

بيد أن أمه فارت عواطفها ، وثارت نفسها ، فهتفت رافعة رأسها إلى السماء ، ضارعة إلى الله ، شاكية إليه جريجا :

— اللهم إن هذا جريج ، وهو ابنى ، وإنى كلمته فأبى أن يكلمنى .. اللهم فلا تمته حتى تريه وجوه المومسات .. !!

ثم سارت إلى بيتها ناقمة ساخطة ، ترغى وتزبد .. !!

ولم يطاوعها قلبها أن تقول أكثر من هذا .. أن يريه وجوه النساء الزانيات فحسب .. لايفتن فى دينه .. ولاينصرف عن عبادته .. ولا يعذب

يوم القيامة .. ولا يصيبه مكروه .. لأن هذا كله يؤذيه و يضره ، و يؤلمه ويرهقه ، وهى لا تريد شيئا من هذا لأنها أمّ قبل كل شىء .. يكفى جدا أن يرى وجوه المومسات الزانيات ، وكأنها رأت فى هذا لونا من ألوان العذاب ، ولكنه عذاب هين يسير ..

يالقلوب الأمهات .. !!

* * *

وطبقت شهرة جريج الآفاق ، وعلم بها من لم يكن يعلم ، وعملت فيها الشائعات عملها ، بحيث تضخمت إلى حد كبير ، كاد يخرجها عن أصلها ، فصوّرت جريجا فى صورة ملك من الملائكة .. لا يعصى الله ما أمره ، ويفعل ما يؤمر به على طول الخط ، وامتداد الطريق ..

وكان الحديث عنه يدوى فى المدينة دويا هائلا ، مما دفع إحدى البغايا أن تقول لجمع من الناس من بنى إسرائيل ، فى تحدّ ظاهر :

— إن شئتم لأفتننه ..

ونظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقد وقعت هذه العبارة من نفوسهم موقع الدهشة والعجب ، وأخذت الأفكار تدير هذا القول ، فلا تجد له معنى ، وأن الفاتنة مهما أبدت من زينتها ، وأظهرت من جمالها ، وأعلنت من إغرائها ، فلن تجد مجيبا ، ولن تحرك من نفس جريج أبداً .. !!

ولذّ لبعض الأذهان أن يؤمّن على قولها ، فمن الممكن جدا أن يتطامن كبرياء الرجل أمام جمال المرأة ، وأن يخضع أمام فتنتها و إغرائها ، و إن

جريجا لن يقاوم إغراء هذه البغى ، ولن يقوى على فتنتها ، وما تبديه من دلال وسحر عجيب .. !!

ومن عجب أن تجمع آراء هؤلاء جميعا على رأى واحد ، ليروا مبلغ قوة هذا الرجل ، ودرجة احتماله ، وهل هو من نوع آخر غير الذى يعرفونه فى الرجال والعُباد ، أم من النوع ذاته ، وأنه من البشر لا يفترق عنهم فى قليل ولا كثير ، اللهم إلا امتلاكه لنفسه ؛ إلى حد ليس بالعجيب النادر ، ولا بالمدهش القليل الوجود . . وقالوا جميعا :

— قد شئنا ...

قالوها مجازفين ، والصوت الإلهى ينبعث من جانب الغيب ، إن هذا الرجل سيجتاز الامتحان بنجاح . . !!

قالوها وكل منهم يمنى نفسه بأن يرى منظراً عجيباً ، يظل حـــديث المدينة مدة طويلة ، لا تبلى جدته ، ولا يذهب رواؤه ولا طرافته ..

* * *

واتخذت هذه البغىّ من أسباب الزينة ، وعوامل الإغراء ؛ مالم يخطر لأحد على بال ، فبدت أقل من عمرها سنوات وسنوات ، و بدت فى نضارة الشباب ، وميعة الصبا ، وكادت تحسد نفسها على هذا الجمال الذى ظهرت فيه ، وتلك الروعة التى تبدت فيها ..

وسارت إلى جريج ، وتعرضت له ، وهى موقنة أنه سيكون طوع إشارتها ، ورهن إرادتها ، ولـكنها ذهلت حينما أعرض عنها فى رثاء

وإشفاق ؛ وكأنما يأسف لهذه العقلية الساذجة ، التى استولت على هذه المرأة الغرّيرة التى لا تكاد تفهم من الدنيا سوى اللذة والمتعة والشهوة وإرضائها ، والاستجابة لداعى البدن ، ولا شىء غير هذا .

وآلمها ذلك أيما إيلام ؟ فألحت فى الإغراء ، وأمعنت فى الدّلال ، وحاولت أن تلفت نظره إليها ، وتجذب اهتمامه إلى ما تبديه من عوامل الزينة ودوافع الاستجابة لداعى الشيطان ؛ ولكن عبثاً حاولت أن تحرك منه ساكنا ، أو تجد منه سميعاً ، ولم تجد غير الإشفاق والرثاء !! .

لقد طعنت فى كبريائها ، وآلمها أن تنهزم على هذه الصورة النكراء ؛ وأن تعود إلى هذه الطائفة التى تنتظرها ، والتى لاتريدها لذاتها ، وإنما لتعلم خبر جريج ، وهل تمكنت من إغرائه حقاً ، والتأثير عليه ، أم أنه أعرض عنها ، ولم تتمكن من قضاء مأربها معه ؟ ! .

وحارت فى أمرها ، واعتقدت أنها لو رجعت على هذه الصورة لسقطت فى أعين زميلاتها ، اللواتى ينظرن إليها نظرة فيها معنى التقدير ... تقدير جمالها ودلالها ، وأنها أجمل منهن وأكثر دلالا ـ ولسقطت كذلك فى نظر المعجبين بها من شباب بنى إسرائيل ، بحيث يهبط حظها من الجمال فى نظرهم ، وتقل قيمتها ؛ ويتضاءل شأنها .

فماذا تفعل إذن ؟ لابد أن تنتصر بأى سلاح ... ولابد أن تثأر لنفسها من هذا الذى أهانها ولم ينظر إليها ، وكأنها كمية مهملة .

وما أشق على نفس المرأة من إهمال شأنها ؛ وعدم تقريظ جمالها !

وبخاصة إذا تعرضت هى للرجل ، وكان غرضها اجتذابه ، لتحظى منه بوافر المدح ، وعظيم الثناء والإطراء ..!!

واتجهت إلى أحد الرعاة ، وكان يرعى غنما له ، ويؤويها إلى أصل صومعة الراهب جريج ، وتعرضت إلى هذا الراعى فى دلال وإغراء ، وسرعان ما وقع عليها !! .

وعادت فرحة ظافرة ، تملأ المدينة بنصرها ، وخبر ظفرها ، ولكن الناس لا يكفيهم ذلك ؛ فربما تكون كاذبة فى قولها ، وبخاصة وأنها هى التى أبدت هذه الفكرة ، وأظهرت استعدادها لتنفيذها ؛ وأن أسلوبها حينذاك كان أسلوب تحدٍّ ظاهر ، وأنها بجمالها أقوى سلاحًا ؛ وأمضى عزيمة ، من جريج العابد المترهب ، الذى ينزله الناس هذا المنزل الرفيع من التقديس والاحترام؛ والتوقير والإجلال ... إذن فلابد من ثمرة هذه الجريمة ، وإلا فمن يدرى أنها صادقة ؟ وأن هذا الرجل العابد قد وقع فى حبائلها ؟ إنها تعلم هذا ، وتعلم أنها لابد وأن تنتظر هذه الثمرة ، وأن الثمرة عما قريب ستنزل إلى هذا الوجود ، فيغلب باطلها حق هذا العابد الزاهد ؛ وتنتصر عليه انتصاراً باهراً ، ويكفى أن يعلم الناس من أمرها ، أنها هى التى أغرت الزاهد ، وصرفته عن طاعة ربه . وفى هذا دعاية أىّ دعاية لجمالها ودلالها ؛ ووقع سحرها فى النفوس ؛ ثم لا يضيرها بعد هذا إن كان سلاحها الكذب والافتراء ، أو غير هذا ؛ فهى لا تنظر إلى هـــذه التوافه ، التى يقيم

لها الناس دقيق الموازين ، ويحاسبون أنفسهم عليها حساباً عسيراً .

* * *

ومضت الأيام ، وتتابعت الشهور ، ونزل إلى الوجود ذلك المولود ، الذى كان ينتظره بعض الناس ، وكانت ترتقبه هذه البغىّ اللعوب ، وما كاد يتنفس ، ويلتقط ثديها ، حتى شاع الخبر ، وأعلنت انتصارها وظفرها ، وأن وليدها من الراهب جريج .

من الراهب جريج ؟!. من الراهب جريج ؟! .

وسرت هذه العبارة مسرى البرق ؛ على الألسنة ، تتهامس بها الأفواه حيناً ، وتجهر بها حيناً آخر ؛ ولكن عقلا من العقول لم يصدقها ، حتى الذين كانوا يعتقدون أن جريجاً بشر من السهل أن يخطئ ؛ وأن يقع فى حبائل هذه اللعوب ، حتى هؤلاء لم يصدقوا هذا الخبر ؛ ولا هذه العبارة .. ومع هذا كله تجمهروا وأخذوا البغى فى عنف وشدة ، وأقبلوا على جريج يهدمون صومعته .. لقد نادوه ، فلم يجبهم لأنه كان فى عبادته مقبلا على ربه منصرفاً عنهم ، ولكن مساحيهم وفؤوسهم أخذت ترتفع حيناً ، وتنخفض حيناً آخر ، حتى هدموا جزءاً من صومعته ، مما اضطره إلى حديثهم ؛ والنزول إليهم ؛ فتدلى بحبل ، فانهالوا عليه سباً وشتماً وضرباً ولكزاً ووكزاً ، حتى آلموه إيلاماً شديداً ، ووجدت النفوس الضعيفة التى لا تتأنى حتى تعلم حقيقة الأمر ؛ وواقع الخبر ؛ منفذاً لها ، فنفذت منه إلى دين هذا الرجل ، فنالت منه ومن كرامته ، وأنه كذاب محتال ، وأن

دينه رياء ؛ وعبادته طلاء كاذب خداع، وأن إقباله على ربه بعد وجفاء؛ وأن هذه اللحية المدلاة يجب أن تنتف شعرة شعرة ! .

وهكذا بقى هذا الرجل الجليل أضحوكة للضاحك ، وسخرية للساخر ، ومع هذا لم يبد أية مقاومة ، بل اندفع معهم إلى الملك حيث يريدون أن يذهبوا به إلى هناك .. حيث يجد جزاءه الأليم ، فإن الزانى عندهم لابد من قتله على أبشع صورة ..

وسار هذا الموكب الذى أخذ يتضخم ويتضخم ، ويكبر ويكبر، ويعظم كلما ساروا بضعة أمتار ؛ لأن كل سائر لابد أن يسرع إليه ليرى سبب هذا التجمع ، وليتفرج على هذا الرجل العابد ، الذى ظل أمره مكتوماً مدة من الزمن ، حتى انكشف أمره أخيراً ، واتضح أنه زان ، ولجريمته ثمرة تقطع الشك باليقين !! .

ومر هذا الموكب ببيوت الزوانى والمومسات، والساقطات العاهرات ، فلما نظر إليهن الراهب جريج ، تبسم !!.

وعجب مَن حوله لهذه الظاهرة ، وقال بعضهم يرميه بالفسق والفجور والمجون فى أحرج المواقف :

— إنه لم يضحك ، حتى مر بالزوانى !! .

ليتهم عرفوا الحقيقة ؟ إذن لما فعلوا ما فعلوا ، ولكان لهذا الرجل بينهم وضع غير هذا الوضع ؛ ومكان غير هذا المكان .

***

ودخلوا على الملك ؛ ووقف جريج بين يديه ؛ وحوله من مظاهر الأبهة والجلال ؛ ما لم يحرك من نفسه ساكناً ، وإن كان قد أذهل عقول بعض الناس ، وبعث فى نفسه الأمانى المختلفة ، والآمال المتباينة ، فلمظاهر الملك سحر وروعة، فى بعض النفوس والقلوب، ولكنها غير ذات قيمة عند بعض النفوس والقلوب !! .

وســـاد الصمت ، ونظر الملك إلى الراهب جريج ، وأطال النظر ، وكأنما يقارن بين حاله الآن بين يديه من الذلة والمسكنة ، والضعة والمهانة ، وبين حاله قبل هــذا .. قبل أن يعلم أمره ، وينكشف سره .. ثم قال يخاطبه فى رثاء وإشفاق :

— ويحك يا جريج ! كنا نراك خير الناس ، فأحبلت هذه .

— ...

— اذهبوا به فاصلبوه .

ولم يدافع جريج عن نفسه ، فآمن الناس بوقوع الجريمة منــه ، وصدّقوا هذه اللعوب البغى ، ولم يعد هناك مجال للشك .

وكل مافعله جريج ، أنه طلب من الملك أن يمهلوه قليلا ، وأن ينتظروا حتى يفرغ من عبــادته ، وكان له ما أراد .. فأقبل على ربه ، وكأنمــا يشكو إليه هــذا الظلم البين ، والعدوان القــاسى ، والبهتان الأليم ، وسرعان ما اتصل مابينه وبين ربه ؛ فشعر الناس جميعاً بالرهبة والخشية ، ووقفوا يرقبون جريجاً حتى يفرغ .

ولم يطل به الوقت ، فسرعان ما فرغ من ضراعته ونجواه .

ثم ماذا ؟ ... ثم اتجه إلى الطفل ، وفمه فى ثدى أمه يرضع فى حنان وهدوء ، وكأنه لا يعنيه من دنيا الناس شىء ، فمسح رأسه ، وقال يخاطبه فى حنان وعطف ، والناس جميعا يشهدون ذلك ، والملك يشهده :

— من أبوك يارضيع ؟! .

واعتقد الناس أنه قد اختل عقله ، وأدركه الجنون لفداحة المصاب ، وعظم الكارثة ، إذ كيف يخاطب رضيعاً لا يفهم شيئاً ؟! .

وما كان أعظم دهشتهم حينما رأوا الطفل يترك ثدى أمه ، ويتكلم فى وضوح لا خفاء فيه :

— أبى الراعى !! .

— أبى الراعى ؟ ... أبى ... الراعى ...

ودوّت العبارة فى الآذان ، وتلقفتها الألسن فى سرعة وحيرة ، وتطامنت الأعناق ، وخفضت الرءوس ، وتخاذل الناس جميعاً ، واتضح لهم الأمر ، وعلموا من هو جريج ؟! .

وأقبل الناس يقبلونه ، ويستغفرونه ، فلقد كذبت البغى ، وكادت تقضى على الرجل وكادت تقع الكارثة . . وأصروا على أن يبنوا صومعته من الذهب والفضة ، ولكن هذا لا يدخل فى حسابه ، فطلب أن يعيدوا بناء ما انهدم منها بالطين كما كان . !!

وقال قائل منهم فى استعطاف واحترام :

— أسألك بالله أن تقول لى م ضحكت عندما مررت بالزوانى ؟

فأجاب جريج فى خضوع وذلة :

— ماضحكت إلا من دعوة دعتها علىّ أمى .. أن يرينى الله وجوه الزوانى ... !

وما كاد الناس يتمون بناء صومعته ، حتى علاها مقبلا على الله !! .